هرقل والإسلام

هرقل و الإسلام -١

يروى ابن عباس - رضى الله عنهما - أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه فى ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام فى المدة التى كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مادّ فيها أبا سفيان و كفار قريش ، فأتوه وهم بإيلياء ، فدعاهم ، فى مجلسه و حوله عظماء الروم ، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال :

- أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبىّ؟

- **فقالوا أبو سفيان :** أنا أقربهم نسباً . فقال : أدنوه منى ، و قربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه :

- **قل لهم :** إنى سائل هذا الرجل ، فإن كذبنى فكذبّوه . فوالله لولا الحياءُ من أن يأثروا علىّ كذبا لكذبت عنده ، ثم كان أول من سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب .

- **قال :** فهل قال هذا القول أحد قبله ؟

- **قلت :** لا .

- **قال :** فهل كان من آبائه مِنْ مَلِكُ ؟

- **قلت :** لا .

- **قال :** فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

- **فقلت :** بل ضعفاؤهم .

- **قال أيزيدون أم ينقصون ؟**

- **قلت :** بل يزيدون .

- **قال :** فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه

- **قلت :** لا .

- **قال :** فهل يغدر ؟

- قلت :لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها . قال أبو سفيان : ولم تمكني كلمةٌ أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة . قال : فهل قاتلتموه ؟

- **قلت** : نعم .

- **قال** : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت الحرب بيننا و بينه سجال . ينال منا وننال منه ... (حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم وأبوداود وغيرهم) .

....

هذه القصة النبوية تقدم لنا صورة الإسلام فى فكر هرقل ملك الروم لدى دعوته إلى الدخول منه ، وهى قصة حافلة بالمعانى ، والحوار ، وفيها شخصيات مهمّة لها تاريخ فعال فى مسيرة الإسلام سلباً أو إيجاباً ...

لقد استدعى هرقل وفداً عربياً قريباً من الصراع بين المسلمين والمشركين ، ويعلم عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أكثر مما يعرفه غيره ، ولهذا كان الوفد الذى يتزعمه أبو سفيان بن حرب الذى قاد المعارك فى أكثر مناسبة ضد المسلمين ، من أكثر الوفود تعبيراً عن صورة الصراع ، وصورة محمد – صلى الله عليه وسلم – فى طبيعته و أخلاقه و سلوكه ..

لقد كان أبو سفيان ومن معه يتاجرون فى الشام فى فترة الصلح بين النبى – صلى الله عليه وسلم – والمشركين ، المعروفة باسم صلح الحديبية ، وكانت مرحلة هدنة لا قتال فيها بين الطرفين ، مما أتاح للمشركين فرصة التفرغ للاتجار ، والسفر خارج الحجاز إلى الشام ، ويبدو أن هرقل ، كان يعلم أن قريشاً تتاجر ، وتحضر إلى الشام فحرص على أن يستدعى زعيمها ومن معه ليعرف منهم حقيقة النبى الجديد، وأن يضعهم جميعاً فى الموقع الذى يليق بالزعيم و أتباعه . ولذا كان سؤله المهم عن أقربهم نسباً إلى محمد فجعله قريباً منه ، وبقية القوم خلفه .

وسنرى الحوار فى هذه القصة يلعب دوراً مهمّاً فى كشف صورة النبى – صلى الله عليه وسلم – وفى الوقت ذاته يكشف طريقة التفكير لدى هرقل تجاه محمد ، وأهم

الأمور التى تشغله تجاه هذا النبى الجديد . وعن طريق الترجمان يضع أبا سفيان مع رجاله فى موقف حرج ، بحيث يصعب عليه أن يجيب إجابة كاذبة عن أسئلته ويطلب منهم أن يكذبوه إذا كذب ، وهو ما يجعل أبا سفيان لا ينطق إلا بالحق فى النبى الجديد .

لذا نجد أبا سفيان يجيب عن أسئلة هرقل بإجابات صادقة ؛ فيشير إلى أن محمداً ذا نسب فى قريش ، و أن أحداً قبله لم يدع إلى ما دعا إليه ، و أنه ليس من أبناء الملوك و أن الضعفاء هم الذين يتبعونه ، و أنهم يزدادون مع مرور الأيام .

و يجيب أبو سفيان على سؤل دقيق يتعلق بارتداد بعض المسلمين عن الإسلام ، وهو سؤل يدل على ذكاء هرقل ورغبته فى التأكد من أن أتباعه ماضون فى طريقهم ولا يرجعون عنه لأى سبب كان . إن أبا سفيان يؤكد لهرقل أن أحداً من المسلمين ، أتباع محمد ، لا يرتد عن دينه بعد أن يدخل فيه .

ثم يسأل هرقل عن بعض صفات محمد ، وتكون الإجابة أنه لا يكذب ، ولا يغدر وأن قريشاً قاتلته فكانت نتيجة الحرب بينه و بينها سجالا ، أى ينتصر فى بعض المعارك وينتصرون فى بعضها الآخر أو حسب قول أبى سفيان (**ينال منا وننال منه**).

ونلاحــظ أن إجابــات أبى سفيان فى هذا الحوار الدقيق الذى لا يستطيع فيه الكذب ، تؤكد على ذكاء أبى سفيان أيضا، فهو يقول عند إجابته عن صفة الغدر فى محمد: إنه لا يغدر، ولكنه يردف نفى الغدر عنه بكلمة قد تثير حفيظة ملك الروم، وهى التشكيك فى وفاء محمد بمعاهدة الصلح فى الحديبية. يقول أبو سفيان :

" ونحن منه فى مدة لا ندرى ماهو فاعل فيها "

ويعلق أبو سفيان على هذه الكلمة بقوله :

" ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة " ...

ولكن هرقل ، لم يتأثر فيما يبدو بهذه الكلمة ، وواصل طرح أسئلته الدقيقة على أبى سفيان ، ليستكمل الصورة التى يريد أن يعرفها عن محمد – صلى الله عليه وسلم – ويبنى عليها قرارة بقبول الإسلام و الدخول فيه ، أولا .

هرقل و الإسلام -٢

يستدعى هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب ، و يسأله عن النبى الجديد تاريخاً و سلوكاً ، ليقرر موقفه من الدعوة إلى الإسلام ، ويواصل أسئلته لأبى سفيان على النحو التالى :

قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة و الصدق ، و العفاف و الصلة . فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها .

وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله .

وسألتك : هل كان من آبائه من ملك ؟ فذكرت أن لا . قلت : فلو كان من آبائه من ملك ، قلت رجل يطلب ملك أبيه . و سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس و يكذب على الله . وسألتك اشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم ، اتبعوه ، وهم أتباع الرسل .

وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟فذكرت أنهم يزيدون ، و كذلك أمر الإيمان حتى يتم .

و سألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حتى تخالط بشاشته القلب .

وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، و كذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك : بما يأمركم ؟

فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عباة الأوثان و يأمركم بالصلاة ، و الصدق ، و العفاف ، فإن كان ما تقول حقا ، فسيملك موضع قدمّى هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارجٌ لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

....

رأينا أن الحوار ركيزة من ركائز القصة التى بين أيدينا ، وهى دعوة هرقل إلى الإسلام ، وهو ما جعل هرقل يستدعى أبا سفيان ومن معه من تجار قريش ؛ الذين جاءوا إلى الشام بتجارتهم و استقبلهم فى إيلياء أو بيت المقدس أو القدس كما نعرفها الآن وأخذ يسأل أبا سفيان عما جاء به محمد ، وطبيعته ، وهاهو يسأل أبا سفيان عن الدعوة الجديدة و طبيعتها .

يسأل هرقل أبا سفيان : ماذا يأمركم ؟

أى ما هى دعوته و إلام يدعو ؟ و يجيبه أبو سفيان

" اعبدوا اللّه وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم "

إنها عقيدة التوحيد التى ترفض عبادة الأوثان و الأصنام ، التى لا تضرّ ولا تنفع وتجعل العبادة خالصة لله الواحد الأحد ، الذى لا شريك له .

كما يجيب أبو سفيان ، عما يدعو الإسلام الناس إلى سلوكه وممارسته فى حياتهم اليومية و الإنسانية بقوله : -

" **ويأمرنا بالصلاة و الصدق و العفاف و الصلة** " ، وهى قضايا خلقية وعبادية تزيد الإنسان نقاء و صفاء و احترٰما لنفسه و للآخرين ، ولا يأباها إلا منحرف الفطرة ،غليظ النفس ، مريض الفؤ د ، مغلق العقل ..

ويفسّر هرقل أسئلته و إجابات أبى سفيان ، تفسيراً عميقاً مقنعاً ، فهو عندما سأل عن نسب محمد ذكر أبو سفيان أنه ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها مما يعنى أصالة الرسول ، ومكانته فى قومه .

وسأل عن أحد سبقه بهذا القول ، فكانت الإجابة بالنفى ، لأنها لو كانت بالإيجاب لقال هرقل إنه رجل يتأسى أو يقتدى أو يقلّد قولاً قيل قبله .

وسأل عن آبائه ، هل كان منهم ملك ؟ ولما كانت الإجابة بالنفى ، فإنه لو كان من آبائه ملك لقال إنه رجل يطلب ملك أبيه .

وسأل : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، ولما كانت الإجابة بالنفى فقد عرف أنه لم يكن ليترك الكذب على الناس ، ويكذب على الله .

وسأل عمّن اتبعوه ، فعرف أنهم الضعفاء ، وهم عادة أتباع الرسل . وسأل عن زيادتهم و نقصانهم فعرف أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم و يكتمل ، و أنهم لا يرتدون بعد دخولهم إلى الدين الجديد ، وكذلك الإيمان حتى تخالط بشاشته القلوب .

وسأل هل يغدر ، فعرف أنه لا يغدر ، وكذلك الرسل لا تغدر .. وسأل عما يأمر به فعرف أنه يأمر بالتوحيد و ينهى عن عبادة الأوثان ، ويأمر بالصلاة والصدق و العفاف ...وكل هذه العلامات تؤكد على نبوة محمد –صلى الله عليه وسلم، وأن ما يقوله هو الحق ..

إن هرقل ملك الروم يطرح المسألة من خلال تصور عقلى و منطقى ، فرجل تتحقق فيه هذه العلامات ، هو رجل جدير بالاتباع ، وإذا كان ما يقوله أبو سفيان حقا ، فسيملك موضع قدميه ، أى بلاد الروم ، وهرقل يتنبأ بما سوف يحدث مستقبلاً من انتصار عظيم للإسلام و المسلمين فى امتلاك بلاده ، ويشير إلى أنه لو استطاع الوصول إليه سالماً لتحمل فى سبيل ذلك كل عناء ، و يبدو أنه كان يدرك أن قومه لن يسمحوا له بالدخول إلى الدين الجديد ، ولو كلفهم ذلك قتله ، وهو ما سنتأكد منه فيما بعد . إن هرقل كان يريد الإسلام وكان يريد أن يعبر عن حبه وإخلاصه لمحمد ، لدرجة أن يغسل قدميه ...ولكن الأحداث جرت بما لا يشتهى السّفِن ......

هرقل و الإسلام -٣

بعد أن عرف هرقل النبوة و صِدْقها من خلال أجوبة أبي سفيان على أسئلته دعا بكتاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذى بُعث به دحية إلى عظيم بصرى ، فدفعه إلى هرقل ، فقرأه ، فإذا فيه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .

سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام : اسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين :

" قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ " (سورة آل عمران الآية ٦٤)

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال ، وفرغ من قراءة الكتاب ، كثر عنده الصخب وارتفعت لأصوات و أخرجنا ، فقلت لأصحابى حين أُخرجنا : لقد أَمِرَ أمْرُ ابن أبى كبشة إنه يخافه مِلِك بنى الأصفر ، فمازلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علىّ الإسلام .

وكان ابن الناطور – صاحب إيلياء و هرقل – سُقُفاً على نصارى الشام ، يُحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يوماً خبيث النفس ، فقال بعض بطارقته :

- قد استنكرنا هيئتك ؟!

قال ابن الناطور : وكان هرقل حزّاء ينظر فى النجوم ، فقال لهم حين سألوه : إنى رأيت الليلة حين نظرت فى النجوم ، مَلِك الختان قد ظهر ، فمن يختتن من هذه الأمة ؟

قالوا : ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم ، واكتب إلى مدائن مُلكِك فيقتلوا من فيهم من اليهود " .

....

تتصاعد أحداث القصة التى يضمها الحديث الشريف ، لتقدم لنا هرقل فى طريقة بحثه عن حقيقة الدين الجديد ، والرسول الذى جاء به ، من خلال أسئلته لأبى سفيان بن حرب و أجوبته فبعد أن سأله عن شخصه و سلوكه و أخلاقه ، وسأله عما جاء به ويدعو إليه ، يعلن أنه النبى الحق ، و أنه سينتصر ، وسيملك بلاد الروم ، و يتمنى هرقل أن لّو استطاع الوصول إليه ليعلن خضوعه واستسلامه له لدرجة أن يغسل قدميه ..

إن هرقل بعد كل ذلك ، يأتى ، أو يطلب أن يؤتى بكتاب النبى الجديد ، محمد -صلى الله عليه وسلم- الذى أرسله إليه مع دحية الكلبى ، ويقرأ مافى هذا الكتاب، ليراه متطابقاً مع إجابات أبى سفيان على الأسئلة التى وجهها إليه أم لا؟!

إن الكتاب يدخل فى دائرة المختصر المفيد ، أو ما قل ودل . يبدأ الكتاب بالبسملة ويذكر المُرسِل وهو محمد عبد الله ورسوله ، والمرسل إليه وهو هرقل عظيم الروم ، ونلاحظ أن وصف المرسل والمرسل إليه، يأتى فى دقة، ووقار يليق بكل منهما فالأول هو عبد الله ورسوله والثانى هو عظيم الروم ..والوصف لا تزيد فيه ولا مبالغة ..

ويبدأ الكتاب بالسلام على من اتبع الهدى، لأن من اتبع الهوى لا سلام عليه...

ثم تبدأ الدعوة مباشرة إلى الإسلام : أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، المرة الأولى لدخوله هو إلى الإسلام ، والثانية بسبب دخول غيره من أتباعه و أنصاره إلى الإسلام أيضا .أما إذا كانت الأخرى بعدم الدخول تحت مظلة الإسلام ، فعليه إثمه و إثم أتباعه أيضاً .

أما إذا كانت الأخرى بعدم الدخول تحت مظلة الإسلام ، فعليه إثمه و إثم أتباعه أيضاً ، الذين سماهم الأريسيين ، و الأريس هو الفلاح ، والمراد بالفلاحين هم أهل مملكته ..أى أتباعه .

أما الآية الكريمة فهى تعبير عن فحوى الدعوة فى نقاط موجزة : عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به وعدم اتخاذ البعض للبعض أرباباً من دون الله ، فإن أعرضوا عن ذلك فقولوا : أشهدوا بأنا مسلمون .

كان من المفترض أن يكون ردّ الفعل عند هرقل متسقاً مع رؤيته التى عبّر عنها عقب إجابات أبى سفيان ، ولكن جرى كان غير ذلك . فقد رأى أبو سفيان القوم من أصحاب هرقل بعد أن فرغ من قراءة الكتاب ، حيث كثر عنده الصخب ، وارتفعت الأصوات ، مما يعنى أنهم ثاروا على الكتاب وربما على هرقل أيضا ، وهى ثورة رفض وغضب وتمردّ ..ولكن أبا سفيان يتجاوز الضجيج و الصخب ، لينظر إلى ماهو أبعد ، إلى المستقبل الذى يرى فيه الإسلام منتصراً ، ومتجاوزاً الجزيرة العربية إلى تخومها وماوراء تخومها ..ويحاول أن يعوّض ما يستشعره من هزيمة مريرة ، فقد كان حتى ذلك الحين مشركا ، بقوله لأصحابه :

"**لقد أمِر امرا ابن أبى كبشة**" ، أى عظم أمر محمد ، وكان يحاول الانتقاص من النبى بنسبته إلى جدّ غامض وفقا لعادة العرب .

إن ملك الروم ، أو ملك بنى الأصفر كما يسميه ، صار يخاف محمداً و يهابه ، كما يرى أبو سفيان الذى يقول :

"**فمازلت موقنا أنه سيظهر أى سينتصر – حتى أدخل الله على الإسلام**" .

ومن أحداث القصة التى تكشف عن شخصية هرقل ، اشتغاله بالكهانة ومعرفة النجوم كما يحكى ابن الناطور ، فقد أصبح هرقل ذات يوم مهموماً ، خبيث النفس ، وكان حزّء ، أى كاهنا ينظر فى النجوم ، وحدّث بطارقته بأنه رأى حين نظر فى النجوم ملك الختان قد ظهر ، **وسألهم** :

من يختتن فى هذه الأمة ؟ فأجابوه بأنهم اليهود ، وعليه أن يطلب من ولاة مدنه أن يقتلوا اليهود ..

ويبدو أن " **الاختتان**" كان رمزاً لما كان يعرفه الروم من خصائص الدين الجديد الذى يهدد ، كما يتصورون – معتقداتهم ، ولذا كانت مشورتهم بقتل اليهود الذين يختتون .

على أية حال، فإن الختان سيكون عنصراً مهمّاً فى التعرف على الدين الجديد.

هرقل و الإسلام -٤

حين رأى هرقل فى النجوم ملك الختان قد ظهر، وسأل عمن يختتنون وعرف أنهم اليهود، أشار عليه البطارقة أن يقتلهم فى كل أرجاء مملكته.

فبينما هم على أمرهم أُتى هرقل برجلٍ أرسل به ملك غسّان يخبر عن خبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلما استخبره هرقل قال:

- اذهبوا فانظروا أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه فحدثوه، وسأله عن العرب **فقال:** هم يختتنون.

- فقال هرقل : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر، ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره فى العلم، وسار هرقل إلى حمص، فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأى هرقل على خروج النبى –صلى الله عليه وسلم– **وأنه نبىّ.**

فأذن هرقل لعظماء الروم فى دسكرة بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلّقت، ثم اطلع **فقال :** يا معشر الروم، هل لكم فى الفلاح و الرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبى ؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلّقت، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان، **قال :** ردّوهم علىّ، وقال : إنى قلت مقالتى آنفاً أختبر بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيت فسجدوا له، ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل ......

....

فى هذا الجزء الرابع و الأخير من قصة هرقل و الإسلام كما يقدمها الحديث الشريف نرى أن هرقل وهو كاهن أوحزّاء ـ وله دراية بعلم النجوم، يرى ملك الختان قد ظهر وهو علامة من علامات النبى الجديد التى تبشر بمقدمه، فيتساءل عمن يختتنون فى مملكته ويعلم أنهم اليهود، ويشير عليه البطارقة بقتلهم فى كل مكان من أرجاء بلاده .. وفى غمرة هذا الأمر، يأتى رجل من طرف ملك غسّان

أو الغساسنة يخبر عن خبر رسول الله – صلى الله عليه وسلم . وهذا الرجل يؤيد ما رآه هرقل خبير النجوم ..

وقد يتساءل البعض ماهى حكاية الختان هذه وما دلالتها ؟

والأمر ببساطة ، هو أن ختان النبى المنتظر علامة من العلامات التى وردت فى كتب السابقين ، وتبشر بمجىء هذا النبى أو خروجه على الناس ، ولذا كان حرص هرقل على معرفة من يختتن . ولهذا فإنه سأل عن رسول ملك الغساسنة فعرف أنه مختون وأن العرب يختتنون ، فتأكد لديه أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – هو الرسول الحق ..

وقال : هذا ملك هذه الأمة قد ظهر . ولنا أن نأخذ كلمة ملك بدلالتها الواسعة، فقد كان بعض الأنبياء ملوكا، ومن هنا جاءت تسمية هرقل للنبى بالملك .

ويبدو أن هرقل لم يكن رجلاً بسيطا أو هينا ، فمع أنه سأل ابا سفيان أسئلة كثيرة وشاملة استوثق منها عن النبى الجديد وعرف صفاته و سلوكه ، وتلقى كتاب النبى – صلى الله عليه وسلم – وعرف من النجوم ما يشير إلى ظهور النبى الجديد ، وسأل رسول الغساسنة عن الختان وعرف أن العرب يختتنون ، فإنه كتب إلى صاحب له برومية ليستوثق أكثر وكان نظيره فى العلم والمعرفة ، وأتاه ردّ صاحبه بموافقة رأيه ومطابقته بخروج النبى – صلى الله عليه وسلم –وظهوره .

بعد كل هذه الدلائل والتوثيقات ، فقد جمع هرقل عظماء قومه فى إحدى قلاعه أو دسكرة له بحمص ، وأمر بأبوابها فغلّقت ، ثم واجههم بالدعوة إلى الإسلام .

لقد قال لهم : يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد ، وأن يثبت ملككم، أى لا يزول بسبب عدم دخولكم فى الإسلام ، فتبايعوا النبّى ؟

لقد كان مقتنعاً تمام الاقتناع بصدق النبى ، وأنه النبى الحق ، ولكنه – أى هرقل – صاحب ملك وجاه وسلطان ، ولا يريد أن يتخلى عنه بسهولة ، كما لا يريد أن يتعرض بسبب إيمانه إلى مضايقات قد تصل إلى حد قتله من جانب أتباعه .

ولذا جمع عظماءهم وعرض عليهم الإسلام وكانت النتيجة أنهم حاصوا حيصة حمر الوحش ، أى نفروا نفرة الحمير الوحشية ، وهى أشد من نفرة البهائم ، والتشبيه مع حمر الوحش يأتى فى سياق التطابق بين الطرفين فى الجهل وعدم الفطنة وشدة الضلال .

لقد نفروا إلى الأبواب الموصدة غضباً ورفضاً للدعوة وللإيمان ، ودل سلوكهم على استحالة قبولهم بالإيمان ..وأدرك هرقل أنه وسط هذا الموج الهادر من الغضب لن يستطيع إقناعهم والإضحىّ بنفسه ، فطلبهم إليه ثانية ، وقال لهم كأنه يختبرهم أو يعتذر إليهم :

- إنى قلت مقالتى آنفا ، أى دعوتى لكم إلى الإسلام أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيتْ ، أى إننى عرفت صدق وفائكم لمعتقدكم القديم . فسجدوا له ورضوا عنه .

لا شك أن الدنيا غلبت هرقل على الآخرة ، فجعلته يمضى مع قومه بعيداً عن الإسلام فتحققت نبوءته ، وامتلك المسلمون بلاده بعد انتصار الإسلام وانتشاره فى أرجاء الأرض ، ولو أنه فعل مثل النجاشى الذى أسلم لتغيرت أحوال كثيرة ، واستمتع بالهداية وتوفيق الله ، ولكنه آثر الدنيا فزلت عنه الدنيا .

كنوز كسرى

كنوز كسرى

قال عدى بن حاتم رضى الله عنه : بُعث رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وكنت من أشد الناس له كراهية ؛ وكنت بأقصى أرض العرب مما يلى الروم ، فكرهت مكانى أشد الكراهية، فقلت لأتيّن هذا الرجل،فإن كان صادقاً لا يخفى على، وإن كان كاذباً لا يخفى علىّ.

فأتيت المدينة فاستشرفنى الناس ، فقالوا : عدى بن حاتم !!

فأتيت النبى – صلى الله عليه وسلم

– **فقال :** " يا عدىّ ، أسلم تسلم " .

– **قلت :** لى دين .

– **قال:** "أنا أعلم بدينك منك، وما أنت أعلم بدينى منى، ألست ترأس قومك؟"

– **قال : قلت :** بلى .

– **قال :** " ألست تأخذ الرباع "

– **قلت :** بلى .

– **قال :** " ذلك لا يحل لك فى دينك " .

– **قال :** وكان ذلك أذهب ببعض ما فى نفسى .

– **قال:**"إنه يمنعك أن تسلم محاسبة من ترى حولنا وأنك ترى الناس علينا ألباً واحداً؟"

قلت : نعم .

قال : " أتيت الحيرة ؟

" **قلت** : لا ، وقد علمت مكانها . قال :" توشك الظعينة أن تخرج من الحيرة حتى تطوف بالبيت بغير جوار ، ويوشك أن تفتح كنوز كسرى بن هرمز "

قلت : كنوز كسرى بن هرمز ؟! قال: "كنوز كسرى ، ويوشك الرجل أن يخرج زكاة المال من ماله فلا يجد من يقبلها "

قال : فقد رأيت الظعينة تخرج من الحيرة حتى تطوف بالبيت بغير جوار ، وكنت فى أول خيلٍ أغارت على السواء ، والله لتكونن الثالثة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى رواية: وأحلف بالله لتجيئن الثالثة أنه قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم .

(حديث صحيح أخرجه أحمد و آخرون)

....

هذه قصة صحابى اهتدى إلى الإسلام بعد مواقف وتفكير، نقلته من صف العداء للإسلام إلى صف المجاهدين من أجله، المضحين بأرواحهم فى سبيله، وهو يحكى القصة على لسانه من خلال حوار مع النبى - صلى الله عليه وسلم - حيث يكشف كيفية الانتقال من الكفر إلى الإسلام، ويرى علامات انتصار الإسلام كما بشر بها النبى - صلى الله عليه وسلم - وتمثلت فى أكثر من ملمح من ملامح القصة كما سنرى إن شاء الله .

يسرد عدى بن حاتم بضمير المتكلم من بدايتها حتى نهايتها، ويعبّر فى أولها عن حالته عندما كان كافراً، يعيش على تخوم الجزيرة العربية بالقرب من بلاد الروم . فقد كان شديد الكراهية للنبى - صلى الله عليه وسلم - بل كان - كما يقول - أشد الناس له كراهية ولأنه أيضا، كره مكانه الذى يعيش فيه، فقد دفعته الكراهيتان، أو قل رغبته فى التعرّف على هذا النبى الذى يكرهه عدىّ، إلى المجىء إليه والتحدث معه، والوصول إلى حقيقته إن كان صادقاً أو كاذباً، فهذا مما لا يخفى عليه . فشدّ الرحال إلى المدينة المنورة، وقابل النبى - صلى الله عليه وسلم - وبدأ بينهما حوار له دلالته ومعانيه ..

عدىّ بن حاتم شخصية مرموقة فى الجاهلية، وله مكانته بين العرب، لذا عندما اقترب من المدينة ليدخلها، تطلّع إليه الناس، وربما بسبب موقفه من الإسلام والمسلمين وهتفوا فى اندهاش باسمه : عدى بن حاتم ! كأنهم كانوا غير مصدقين أن يأتى هذا الكاره للنبى إلى عرين هذا النبى !

وعندما جاءوا به إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - بادره النبى بالقول : يا عدّى أسلم تسلم .

ويلاحظ أن النبى لم يعاتبه على موقفه ، أو يحاسبه على بغضه له ، ولكنه – وهو الرءوف الرحيم دعاه إلى الإسلام ، وقال له : أسلم تسلم ، فالإسلام بالنسبة له الإسلام وأمامه ، ولكن عدىّ بن حاتم ، يكابر، ويقول: لى دين. أى إنه صاحب عقيدة دينية لا يريد التخلى عنها ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم- يبادره مفحماً :

" **أنا أعلم بدينك منك . وما أنت أعلم بدينى منى . ألست ترأس قومك ؟**"

وهنا يكون سؤل الرسول لعدى عن رئاسة قومه مدخلاً آخر لمزيد من إفحام عدى .

وبعد أن يجيب عدى بأنه رئيس قومه يخبره الرسول – صلى الله عليه وسلم – بأنه يأخذ المرباع ، أى ربع الغنيمة يأخذها دون قومه فى الجاهلية ، وهو مالا يحلّ له فى دينه ..ويبدو أن عديّاً بوغت بكلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – فاهتز داخله وترنح وقال : إن ذلك أذهب ببعض ما فى نفسى . وقال : إنه يمنعك أن تسلم محاسبة من ترى حولنا ، وإنك ترى الناس علينا ألباً واحداً ، أى اجتمعوا على عدواتنا بالظلم و البغى ..وهنا يقول عدى : نعم . لقد عرف سبب عدم إسلامه ، وهاهو الرسول يخبره بهذا السبب !

ويواصل النبى – صلى الله عليه وسلم – أسئلته لعدى فيسأله عن الحيرة وهل حل بها ؟ ويخبره أن الظعينة أى المرأة فى الهودج توشك أن تخرج من الحيرة حتى تطوف بالبيت بغير جوار. ويوشك أن تفتح كنوز كسرى بن هرمز. كما يخبره أن الرجل يوشك أن يخرج زكاة المال من ماله فلا يجد من يقبلها ، وهى علامات أو بشارات لانتصار الإسلام وقد تحققت بالفعل بفضل الله ، وقد رآها عدى بن حاتم رأى العين ، بل شارك فى أول خيل أغارت على السواد ، أى سواد العراق وأقسم بالله لتكونن الثالثة من بشارات رسول الله –صلى الله عليه وسلم .

وهكذا صار عدىّ من أخلص صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، وأكثرهم جهاداً فى سبيل الله ، وممن شهدوا البشارات النبوية بانتصار الإسلام على كسرى بن هرمز وفتح كنوزه .

حنظله يرّوح عن أهله

حنظله يرّوح عن أهله

عن حنظله التميمى – رضى الله عنه – قال : كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكرنا بالجنة و النار ، كأنهما رأى عين ، فقمت و أتيت إلى أهلى ، فضحكت ولهوت ، فلقيت أبا بكر ، فذكرت ذلك له ، فقلت :

يا أبا بكر ، نافق حنظلة !!

فقال أبو بكر ، وماذاك ؟ فأخبرته ، فقلت : كنا عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكرنا بالجنة و النار ، كأنا رأى عين ، فقمت إلى أهلى فضحكت ولعبت .

فقال أبو بكر : إنا لنفعل ذلك ، فأتيت النبى – صلى الله عليه وسلم .

فقلت : يا رسول الله إنا إذا كنا تذكرنا بالجنة و النار كأنا رأى عين فقمت إلى أهلى فضحكت و لعبت .

فقال النبى – صلى الله عليه وسلم :

" **يا حنظلة ساعة و ساعة ، لو كنتم كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة فى بيوتكم ، وعلى فرشكم ، يا حنظلة ساعة وساعة** "

(حديث صحيح ، أخرجه مسلم و آخرون)

....

تقدم لنا القصة الشريفة فى هذا الحديث نمطا من السلوك الإنسانى الذى يمارسه المسلم فى حياته اليومية ، وتكشف لنا عن سماحة الإسلام و تواؤمها مع الفطرة البشرية التى تحتاج إلى التوازن بين الجد و الترويح ، و العمل و اللهو ، والصرامة و المرونة ..كما تجلو حرص الصحابة رضوان الله عليهم ، على تحرّص الصواب و السلامة فى كلامهم و أفعالهم وتصرفاتهم ، وخوفهم من الله ، وخشيتهم من النفاق .

فهذا حنظلة التميمى – رضى الله عنه – يجد فى نفسه حرجاً حين يقارن موقفه ووضعه الإيمانى – إن صح التعبير – وهو فى مجلس النبى – صلى الله عليه

وسلم – وموقفه ووضعه الإنسانى حين يكون فى أسرته بين زوجه و أولاده .. وموقفه عند الرسول – صلى الله عليه وسلم – يستمع إلى حديثه الذى يصوّر الجنة و النار وما فيها من نعيم و عذاب ، وما يستتبع ذلك من تصوير لأهل الجنة وروّادها ، وأهل النار و نزلائها ..وكأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يصور كلا من الجنة و النار ، تصويراً مجسّما ، وكأن السامعين من الصحابة – رضوان الله عليهم – يرون الجنة والنار رأى العين ...وهو ما يجعل الواحد منهم ، يفارق الدنيا وما فيها من ملذات وهوى العيش والبقاء ، وينسى وجوده الإنسانى الدنيوى ليحلم بوجوده الأخروى فى الجنة ، ويرجو الله أن يبعده عن النار...

بيد أن حنظلة حين يكون وسط أهله و أبنائه ؛ يضحك معهم و يلهو ، ويعيش فى الدنيا ، ويأخذ منها نصيبه أكلا و شرباً و مفاكهة و ممازحة ولقاءً وحواراً، وكأنه فى عالم آخر غير عالم الجنة و النار الذى عاشه مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وأصحابه رضوان الله عليهم .

يقلقه هذا الوضع ، فيثب همه إلى أبى بكر الصديق – رضى الله عنه ، ويفضى إليه بذات نفسه ، ولكن أبا بكر يخبره أنه يفعل مثلما يفعل حنظله . يستمع إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – و يضاحك أولاده و يلهو معهم ، و يبدو أن ردّ أبى بكر على حنظلة لم يقنعه ، ولم يشبع غريزة البحث عن إجابة شافية لديه ، فيتوجه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – و يطرح عليه التساؤل ، متضمنا هذا القلق ، و هذه الحيرة ، التى تصور معهما أنه وقع فى دائرة " **النفاق** " الذى يذمه الإسلام و يكرهه وتوعد أصحابه بالدرك الأسفل من النار ، ولن يكون لهم يوم القيامة نصير أو شفيع .

وتأتى إجابة الرسول – صلى الله عليه وسلم – حانية شافية ، تؤكد على إنسانية الإسلام ، وموافقته للفطرة البشرية التى فطر الله الناس عليها . ويقول له :

"يا حنظلة ساعة وساعة. لو كنتم تكوُنون كما تكونون عندى لصافحتكم الملائكة فى بيوتكم، وعلى فرشكم، يا حنظلة ساعة وساعة".

وهنا نجد الإجابة مؤكدة لقول أبى بكر أو إجابته ، و يكرر الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى حديثه : " **ساعة وساعة** " . يذكرها فى البداية كما يذكرها فى الختام ليؤكد على الطبيعة البشرية التى تجمع بين ذكر الله ، وممارسة الحياة ، بين العبادة والعمل ، بين الورع و الأخذ بنصيب من الدنيا ..إن الإنسان روح وبدن ، والإسلام يضع فى حسبانه إشباع حاجات الإنسان الروحية و الجسمية جميعا .. هذه هى طبيعة الحياة الفطرية السوية .

الإسلام لا يحرم الإنسان من أحد الجوانب الحياتية ، بل يعمل على إشباعها جميعا ومع ذلك فقد ترك المجال لمن يريد الترقى و الترفع ، وهو ما نفهمه من قوله – صلى الله عليه وسلم – لو كنتم كما تكونون عندى ، أى لو عشتم طمعا فى الجنة وخوفا من النار أى ابتعدتم عن الدنيا وزخارفها ، لصافحتكم الملائكة فى بيوتكم وعلى فرشكم ، وذلك لإخلاصكم لله و ترفعكم عن الدنايا و عيشكم فى الآخرة ... ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يؤكد على حنظلة ، أن المسلم يعيش حياته ساعة وساعة. ساعة مع العبادة والذكر والآخرة وساعة مع العمل و الترويح واللهو البرىء، حتى يتجدد القلب ، و تقوى العزيمة و يعيش المسلم متوازنا بريئاً من أمراض النفس وعللها .